أبو الفتح عثمان بن جنّي، أبوه جنّي، كان روميا من موالي سليمان بن فهد بن أحمد الأزدي، و من هنا كان اسمه "أبو الفتح عثمان بن جني الأزدي، ولد بالموصل، واختلف في تاريخ وفاته، و على الأرجح أنه توفي في عام 392 ه، كما أشار إلى ذلك ابن النّديم وابن الأنباري.

أخذ "ابن جني" عن "الأخفش"، أما أستاذه الحقيقي فهو "أبو علي الفارسي"، إذ صحبه "ابن جني" أربعين عاما حتى توفي أبو علي، فخلفه "ابن جني" في مكانته.

كان "ابن جني" شابا يدرّس العربية في مسجد الموصل عندما التقى بأبي علي لأول مرة، و لزمه و صاحبه إلى أن مات هذا الأخير.

روى "ابن جني" عن الأعراب الفصحاء الثقاة، شأن علماء عصره، كما روى عن "أبي بكر محمد بن الحسن" المعروف بابن مقسم، ثم اجتمع "ابن جني" بالمتنبي بحلب عند سيف الدولة الحمداني، كما اجتمع في شيران عند عضد الدولة، فحدث بينهما إجلال و تقدير متبادل، كانت نتيجته أن قام "ابن جني" بشرح لديوان "المتنبي"، و كان كثير الثناء عليه.

و قد كان "ابن جني" من أتباع المذهب البصري، فلم يكن متعصبا لهذا المذهب، بل كان يأخذ بالرأي الذي يقتنع به، فنحن نراه في الخصائص يكثر النّقل عن "الكسائي" و "ثعلب"، و قد يقف موقفا وسطا بين المذهبين البصري و الكوفي و يأخذ بالمذهب البغدادي.

و قد أحصى "ياقوت الحموي" في معجمه كتب "ابن جني" ، فبلغت تسعة و أربعين كتابا، و منها: سرّ الصّناعة، تفسير ديوان المتنبي الكبير، تفسير معاني ديوان المتنبي، اللّمع في العربية، كتاب الألفاظ المهموزة، التلقين في النّحو، ثم الخصائص، و غير ذلك.

1- الهدف من تأليف الكتاب:

يتّضح من عنوان كتاب الخصائص أنه يبحث في اللّغة العربية، و إن اشتمل على مباحث تتّصل باللغة بصفة عامة، مثل البحث في الفرق بين الكلام و القول، و البحث في أصل اللغة: أهي إلهام أم اصطلاح،... أما بقية الأبحاث فتختص باللغة العربية: فلسفتها و مشكلاتها.

و قد نصّ المؤلف على أنّ الهدف من تأليف كتابه ليس هو البحث في المشكلات اللغوية الجزئية، و لكنّه البحث في مشكلاتها الكلية، أي في فلسفتها، يقول: «إذ ليس غرضنا فيه الرّفع و النّصب و الجرّ و الجزم، لأن هذا أمر قد فرغ في أكثر الكتب المصنّفة فيه منه، و إنّما هذا الكتاب مبني على إثارة معادن المعاني، و تقرير حال الأوضاع و المبادئ، و كيف سرت أحكامها في الأحناء و الحواشي».

و على الرّغم من إصرار "ابن جني" على أن الهدف من تأليفه هذا الكتاب ليس هو البحث الجزئي في اللّغة، إلاّ أن الذين ترجموا له عرّفوا كتابه "الخصائص" بأنه كتاب يبحث في النّحو و التصريف، يقول "ابن الأنباري": «و أمّا أبو الفتح عثمان بن جنّي النّحوي فإنه كان من حُذّاق أهل الأدب و أعْلمهم بعلم النّحو و التّصريف، صنف في النّحو و التّصريف كتبًا أبدع فيها، كالخصائص، و المصنّف، و سرّ الصناعة... و لم يكن في شيء من علومه أكمل منه في التّصريف».

و الواقع أنّ "ابن جني"، عندما يبحث في مشكلة صرفية أو مشكلة نحوية، لا يبحث فيها في حدّ ذاتها، و لكنّه يتّخذها منطلقا، أو وسيلة للوصول إلى مشكلة لغوية أكبر، و مثال ذلك بحثه في الفرق بين القول و الكلام، و هو يقدّم هذا الباب بقوله: «هذا باب القول على الفصل بين الكلام و القول، و لنقدّم أمام القول على فرق بينهما، طرفا من ذكر أحوال تصاريفهما واشتقاقهما مع تقلّب

حروفهما، فإنّ هذا موضع يتجاوز قدر الاشتقاق و يعلوه إلى ما فوقه، و ستراه فتجده طريقا غريبا، و مسلكا من هذه اللّغة الشريفة عجيبا».

2- نهج ابن جني في كتاب الخصائص:

عدل "ابن جنّي" عن الاعتماد على النّقل المحض، و هو الأسلوب الغالب على أغلب فقهاء اللغة في عصره، و في عصور السّابقين عليه إلى أسلوب جدّ مختلف عن أسلوبهم، أسلوب يعتمد أساسا على إعمال العقل، واستقصاء النّظر، و التعويل على الأدلة و الحجج المنطقية في الجدل، لا يقنع إلا بما يثبت بالدّليل و تؤيده الحجة، يقدّم الأدلّة الكافية، و يستطرد في معالجة كافة جوانب الموضوع، فيشتق من الفكرة فكرة أخرى، و من الجزئية جزئية أخرى، و من المعنى معنى آخر،... و يربط "الشيخ النّجار" محقق كتاب الخصائص بين نهج "ابن جني" و نهج "ابن الرومي" في الشّعر، فيقول: «و على مباحث ابن جني طابع الاستقصاء و الغوص في التّفاصيل و التعمّق في التحليل، واستنباط المبادئ و الأصول من الجزئيات، و هو في هذا يشبه ابن الرومي في الشّعر، و كأنما للجنس الرومي الذي ينتميان إليه أثر في هذا»

لقد سار "ابن جنّي" على نهج سلفه من اللّغويين في الرّواية عن الأعراب الفصحاء الثقاة الذين لم تفسد لغتهم، و لكنّه كان حصيفا دقيقا في النّقل، فلم يقبل الرّواية على النّهج السّابق المعروف بشكل مطلق، بل كان لا يأخذ عن بدوي إلا بعد أن يمتحنه و يتثبّت من أمره و صدقه، لقد كان يبحث عن الثقة فيما يرويه و خاصّة بعد شيوع اللّحن و فساد اللغة من جهة، و لجوء بعض الأعراب إلى النّحل للإرضاء و الكسب، و من أشهر هؤلاء الأعراب الذّين كان يكثر النّقل عنهم: "أبو عبد الله محمّد العساف العقيلي التميمي"، أمّا شيوخه فأهمهم: "أبو بكر محمد بن الحسن" المعروف بابن مقْسم، و هو من القراء و كان راوية ثعلب، و "أبو الفرج الأصفهاني" صاحب الأغاني، و "أبو بكر محمد بن هارون الروياني"، و "محمد بن سلمة"، أما شيخه "أبو علي الفارسي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار" فقد كانت صلته به وثيقة للغاية

عرف عنه أيضا الصّدق و الأمانة في النّقل عن العلماء الآخرين، فكان ينسب الأقوال و الآراء إلى أصحابها، و لا يدّعي لنفسه ما ليس له، و كان عفّ اللّسان لا يتتّبع سقطات العلماء، فكان يكتفي بالتصويب إذا عرض أمر غير صحيح فيها أمامه أو يردّها في لطف أو يعرض عن التعليق، و مثل ذلك ما ورد في كتاب "العين" و كتاب "الجمهرة" من أخطاء، فقد أشار إلى ما ورد من أخطاء في كتاب "العين" مبرّئا "الخليل" من أن يكون قد وقع فيها، يقول: «أمّا كتاب العين ففيه عن التخليط و الخلل و الفساد ما لا يجوز أن يحمل عن أصغر أتباع الخليل فضلا عن نفسه، و لا محالة أنّ هذا التخليط لحق هذا الكتاب من قبل غيره»

و كذلك يقول في نقده للجمهرة: «و أمّا كتاب الجمهرة ففيه أيضا من اضطراب التصنيف و فساد التصريف ما أعذر واضعه فيه لبعده عن معرفة هذا الأمر، و لمّا كتبتُه واقعتُ في متونه و حواشيه جميعا من التّنبيه على هذه المواضع ما استحييت من كثرته، ثمّ لمّا طال عليّ أومأت إلى بعضه و ضربت البتّة عن بعضه».

3- طريقته في الشّرح و التّحليل:

يفرّق "ابن جني" بين ما ينطق به اللّسان أحيانا فيسمّى قولا، و ما ينطق به أحيانا أخرى أو يكتبه القلم فيسمّى كلاما، و هنا يبدأ بتصريف مادّة " قول" و ذكر تقلباتها، التي تنحصر في: قَلوَ، ولَق، وقلَ، ولَق، لقوَ، لوقَ، و عندئذ يأخذ في شرح هذه الألفاظ مستعينا بالتراث الأدبي العربي، فتوصّل إلى أنّ هذه الألفاظ يجمع بينها معنى "الخفوت و الحركة".

ثمّ ينتقل بعد ذلك إلى تصريف كلمة "كلم"، و تحديد تقليباتها، و هي" كلم، كمل، لكم، مكل، ملك، و قد أهمل "لَمَكَ، لأنّها لم تأت في ثبت، و عندما حاول أن يستخلص المعنى المشترك بين هذه التّقليبات وجدها تجمع بين الشدّة و الصّلابة.

و يخلص "ابن جني" من هذا التحليل إلى أنّ الكلام هو اللّفظ المستقلّ بنفسه المفيد لمعناه، و هو الذي يسمّيه النّحويون الجمل، أمّا القول، فأصله أنّه كلّ لفظ مذلِ به اللسان، تاما كان أو ناقصا، و لهذا فإن القرآن الكريم يقال عنه كلام الله و ليس قول الله.

و يظلّ "ابن جني" يعالج هذا الموضوع من كافة زواياه، مثيراً بذلك مشكلات لغوية ما تزال تعالج حتّى اليوم في الأبحاث اللغوية الحديثة.

لقد اعتنى "ابن جني" عناية شديدة بالتصريف و الاشتقاق و التقليبات، يشهد بذلك شرحه لتصريف المازني و الأبواب التي عالج فيها مسائل تصريفية في مؤلفاته، فقد بلغ مكانة كبيرة في علم التّصريف، و هو العلم الأكثر صعوبة و عمقا و قيمة للعلوم اللغوية الأخرى.

فالكتاب يبحث إذن في خصائص اللّغة العربية، يتقدّمها حديث مفصل في قضايا لغوية عامة، مثل حديث عن الفصل بين الكلام و القول، و فيه كثير من سمات نهج "ابن جني"، و هي الشّغف بالاشتقاق و التقليبات و شرح الدّلالات و بيان الفروق الدّقيقة و تقديم الشواهد المختلفة من التراث، شعرا و نثرا، فهو يطرح تعريفات شتى للكلام و القول للتمييز بينهما تمييزا حادا واضحا، و في أثناء ذلك يستطرد في مشكلات صرفية أو نحوية أو دلالية جزئية، ثمّ يعود إلى الموضوع المحور ثم ينتقل إلى مقولات متصلة بهما و هي (القول على اللّغة، ثمّ النّحو، ثم الإعراب، ثم البناء)، ثمّ يعرّج على قضية فلسفية أثيرت منذ فترة مبكرة من تاريخ الفكر الإسلامي، و هي القول على أصل اللّغة أإلهام هي أم اصطلاح؟، ثم ينتقل إلى قضية متّصلة ببناء الأبنية الصرفية و التّراكيب النّحوية في العربية و هي قضية الاطراد و الشذوذ.

و هكذا، فإن كتاب الخصائص يقف بموضوعاته اللّغوية العميقة، و أسلوبه المنطقي في الجدل، و ثقة صاحبه في الرّواية و الحفظ، شامخا بين كتب اللّغة العربية. بل إنّنا لا نبالغ إذا قلنا إنّه يضارع ما يظهر اليوم في الغرب من أبحاث لغوية جادة و عميقة.